التطوّر التاريخي و نشأة الخطاب الديني غير الرسمي في الجزائر

بقلم : **عمر زقاي**

إن معالجـــة موضوع الخطاب الديني في الجزائر يفرض علينا استقراء تاريخيا ، نبرز من خلالـــه الرواسب التي يمكن أن تكون قد أثّرت في تغيّر نبرته و اتّجاهه تبعا للأحداث التي كان يصـــطبغ بصـــبغتها ، و يأخذ بمساراتها الفكرية ، و لعلّ أهم تلك المراحل حقبة الاستعمار ، حيث أن الصورة التي يمكن أن نرسمها للخطاب الديني في الجزائر قبل هذه الفترة ستكون قطعا مـــتميّزة ؛ فما هي إذن أهمّ الإمتدادات التاريخية و الحضارية لهذا النوع من الخطاب ؟ ، و ما هي أبرز الأحداث والمحطّات التي ظلّت تغيّر سكّته و اتّجاهه باستمرار ؟.

نـــرى أن انتشار اللغة العربية بين البربر كان بشكل متسارع ، (**1**) ممّا يدفع على الاعتقاد أن الخطاب الإسلامي الذي كان سائدا ، و الذي كان يتبنّى هذه اللّغة ، كان خطابا متسامحا و رفيقـــا بأهل المنطقة ، خلافا لنظيره الروماني ذي المضمون اللاّتيني و الروح المسيحية . و لقد كـــان هـــذا الخطـــاب يتفاعل مع المتغيّرات التاريخية ، في إطار الإسهامات الحضارية و كذا النّضـــالات السياسية و الثورية التي كانت تفرضها تلك الأوضاع منذ أقدم العصور ؛ (**2**) إلاّ أن الخطـــاب الإســـلامي لم يكن ليؤثر بالشكل الذي أثّر به في المنطقة لو كان طابعه متسلّطا أو عرقيا متعصّبا . (**3**)

و لم تكـــن ثـــورة الفـــاتح من نوفمبر أوّل ثورة في تاريخ الجزائر ، و حتّى الثورات الشّـــعبية على غرار تلك التي خاضها الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري إبّان الاحتلال الفرنســـي لبلادنا ، (**4**) و إنّما هو تاريخ ثوريّ متجذّر يرجع إلى زهاء خمسة و عشرين قرنا خـــلت من الزمن ؛ ممّا يؤكد تماسك البناء الاجتماعي المبني على النضج في التعامل السياسي ، انطلاقا من القرن الثالث قبل الميلاد . (**5**)

فالممـــاليك الأمازيغيـــة الـــتي كـــانت تصطدم بشكل متكرّر (بدافع العصبية القبلية والـــلغوية) مع الأجيال المتعاقبة للمسلمين الفاتحين خاصّة خلال الحملات الأولى و التي كانت عـــلى جانب كبير من الحنكة العسكرية ؛ (6) سرعان ما أقنعهم خطاب هذا الدين الجديد الـــذي كـــانت دعوتـــه للمســـاواة و الصفاء الرّوحي مسلكا لإحداث تحوّلات عميقة على المســـتويين الاجـــتماعي و الـــثّقافي ، مع احتفاظ الشخصية الأمازيغية بملامحها و معالمها التي حاولت الدولة الرّومانية مسخها قبل ذلك مرارا وتكرارا . (7)

" و لا ندّعي طبعا أن العرب و المسلمين ، قد فتحوا الشّمال الإفريقي دون عناء ، أو أنّهم وجدوا السكان الأصليين مرحّبين بهم كلّ الترحاب بل لم يكن الأمر سهلا على الإطلاق ، فإن وفّق المسلمون في إقامة دولتهم و توسيعها في بلاد المشرق خلال مدّة قصيرة لا تتجاوز بضع سنوات ، فإنّهم على العكس من ذلك ، ظلّوا قرابة قرن كامل من الزمن يحاولون تثبيت دعائم الدين الجديد في بلاد المغرب ، أو الشّمال الإفريقي " (8)

لقـــد تبـــنّى الخطـــاب الديـــني فـــيما بعـــد المذاهـــب الإسلامية (أو المنسوبة إلى الإســـلام) الأكثر شذوذا على غرار مذهبي الشيعة و الخوارج ، كما هو الحال في عهد الدولة الرســـتمية في تيهـــرت ، قـــبل أن يتبنّى و بصورة أكثر وضوحا المذهب المالكي السنّي الذي اختـــلط ببعض العقائد الشّركية المقدّسة للأولياء الصالحين أو " المرابطين" المحلّيين ، في تناقض صـــارخ مع الخطاب السنّي الحجازي الذي كان يمثّله الشيخ محمد بن عبد الوهاب في المشرق

ثمّ يدخـــل الخطـــاب الديـــني في الجزائـــر مرحـــلة الـــولاء لـــلخلافة العـــثمانية (1516 – 1830) ، مـــع ما يحمله في طيّاته هذا النّوع الخطابي من محتويات شرعية تتعلّق بوجـــوب الـــبيعة و الطاعة لوليّ الأمر ، و الدّعاء له على منابر المساجد ، لينتقل الخطباء بعد ذلـــك إلى استنفار النّاس للمقاومة ، في أعقاب الهجمات التي كان يشنّها الأسبان و حلفاؤهم الأوربيون على سواحل الجزائر . (9)

فقـــد اتّضـــح أنّ " رجـــل أوربا المريض " (10) لم يعد قادرا على حماية الجزائر ، الـــتي سقطت في قبضة الاستعمار الاستيطاني الفرنسي عام 1830 (11) ، فلم يجد المقاومون الجزائريون أفضل من توظيف الخطاب الإسلامي لحثّ الشّعب على الجهاد و محاربة الاستعمار و حشـــد الأنصار و العدّة و العتاد في سبيل ذلك ؛ و لعلّ أبرز أولئك المقاومين ــ كما أسلفنا الذّكر ــ الأمير عبد القادر الجزائري . (12)

و لم يكن أمام ثورة نوفمبر سوى الأخذ بنفس الخطاب ، لتجعل من الدين الإسلامي عنصرا أساسا في تكوين الشّخصية الوطنية الجزائرية ، و الهوية القومية ، و هو نفس النّسق الذي درج عليه الأمير عبد القادر . (13) و تنجح الثورة في اجتثاث الاستعمار الفرنسي ، و يتحقّق الاستقلال حاملا معه تراجعا و تقلّصا منقطع النّظير لدور الخطاب الديني ، حيث اتّسعت الهوة بين الحكومات و المحكومين ، نتيجة التطبيقات الاشتراكية ، التي سعت إلى احتواء هذا الخطاب و توجيهه لخدمة إيديولوجيتها في إطار ما كان يسمّى بالشّرعية الثورية أو التاريخية ، فأنتجت هذه الوضعية خطابا على الهامش (الخطاب غير الرسمي) استقطب اهتمام النّاس ، وشدّ انتباههم ، حيث وجدوا فيه متنفّسا لمكبوتاتهم ، و إجابة عن تساؤلاتهم ؛ إلاّ أنّه اتّسم بنوع من التطرّف و الهامشية في الطّرح ، والاهتمام بالسلوكيات الظاهرية الفارغة روحيا . و ربّما كانت الفروقات الطبقية إحدى مبرّرات الخاصية العدوانية التي تميّز بها الخطاب الديني بشقّيه الرّسمي و غير الرّسمي ، من خلال العلاقة المتوترة بين الدولة و أجهزتها من جهة ، و بين المجتمع المدني بنخبه و عامّته من جهة أخرى .

و إذا كان الشيخ عبد الحميد بن باديس يمثّل أحد المراجع الكبرى للخطاب الإسلامي في الجزائر ، فلا بدّ أن يكون لخليفته ، و رفيق دربه الشيخ البشير الإبراهيمي نفس القدر و المكانة كأحد رواد الخطاب الإسلامي الجزائري المعاصر ،وكرئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ظلّ معارضا إلى حين وفاته للتطبيقات الاشتراكية في جزائر ما بعد الاستقلال ، فكان يقول : " كتب الله لي أن أعيش حتّى استقلال الجزائر ، و يومئذ كنت

أستطيع أن أواجه المنيّة مرتاح الضّمير ، إذ تراءى لي أنّي سلّمت مشعل الجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام و الحقّ ، والنّهوض باللغة العربية ، ذلك الجهاد الذي كنت أعيش من أجله ، إلى الذين أخذوا بزمام الحكم في الوطن ؛ و لذلك قرّرت أن ألتزم الصّمت ، غير أنّي أشعر أمام خطورة السّاعة ، و في هذا اليوم الذي يصادف الذكرى الرابعة و العشرين لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس (16 أفريل 1964) أنّه يجب عليّ أن أقطع الصّمت ، إنّ وطننا يتدحرج نحو حرب أهلية طاحنة ، و يتخبّط في أزمة روحية لا نظير لها ، ويواجه مشاكل اقتصادية عسيرة الحلّ ، و لكن المسؤولين لا يدركون أنّ شعبنا يطمح قبل كلّ شيء إلى الوحدة و السّلام و الرفاهية ، و أنّ الأسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تنبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية لا من مذاهب أجنبية ..." **(14)**

و لعلّها البدايات الأولى لظهور الخطاب غير الرّسمي ، أو الخطاب المعارض لتوجّهات الوزارات الوصيّة المكلّفة بتسيير دفّة الشّؤون الدينية بالجزائر ؛ فجاء خطاب جمعية القيم ورجالاتها من أمثال الشيخ أحمد سحنون ، عبد اللطيف سلطاني ،والياجوري، و مثقّفين إسلاميين مثل مالك بن نبي ، و تلميذه رشيد بن عيسى على غير ما يهوى النّظام الاشتراكي.

و من أمثلة الأئمة الذين حملوا لواء الخطاب الإسلامي في الجزائر قبل الاستقلال و بعده الشّيخ العرباوي الذي كان يحثّ النّاس على الالتحاق بصفوف جيش التحرير ، و هي التّهمة التي واجه تحت طائلتها الإقامة الجبرية حتّى عهد الاستقلال مستغلاّ منبر الجمعة بمسجد " بلكور " الذي واصل الخطابة فيه بعد الاستقلال ، حيث كان يعارض إقامة بعض الأنشطة الثقافية التي كان يرى فيها الإساءة الواضحة إلى المبادئ الإسلامية ، على غرار منعه لمسرحية : " محمد خذ حقيبتك " التي قال أنّها كانت تشتم الإسلام و المسلمين ، وكان يراد عرضها بالمسرح الوطني الجزائري سنة 1977 و 1980 . و على نفس النّسق سارت خطب الشّيخ مصباح الحويذق والشّيخ عبد اللّطيف سلطاني الذي كتب كتاب " المزدكية في أصل الاشتراكية " الذي منع طبعه بالجزائر ؛ ممّا يجعلنا نستشفّ أنّ مطلع الثمانينيات كان البداية الحقيقية للقطيعة بين الخطاب الإسلامي الجزائري الموجّه ، و نظيره الراديكالي الذي أخذ الطابع غير

الرّسمي ؛ إلاّ أنّ الجدير بالذّكر ، هو أنّ هذا الخطاب لم يتّسم بالعنف و التعصّب إلى درجة التطرّف ،و الدّعوة إلى الخروج على الحكّام و العصيان ، كما حدث بعد ذلك على ألسن خطباء التحزّب و الإيديولوجيا ، و من ضمنهم بعض أئمّة المساجد الذين تناسوا وظيفتهم الدعوية و الإرشادية ، واتّجهوا نحو التسييس ، و زرع الشقاق و البلبلة عن غير وعي بالعواقب و النتائج .

و إذا كان المسلّم به هو أنّ الخطاب الديني مرتبط بتطوّر الأحداث التاريخية (**15**) ، فإنّ الخطاب الإسلامي في الجزائر ظلّ يتفاعل مع الأحداث المتعاقبة التي رسم فيها العنف صورة قاتمة .نتيجة تراكمات و أسباب مختلفة و ذات أبعاد سوسيولوجية عميقة ، و ظروف و عوامل معقّدة أفرزتها الصّراعات الفكرية والإيديولوجية و المذهبية (**16**) ؛ فبينما فضّل بعض الخطباء احترام توجيهات وزارة الأوقاف ، والبقاء على هامش الأحداث ، انغمس بعض الأئمّة في قلب الصّراع ، بل إنّ بعضهم أصبح طرفا فيه ، فكانت أحداث أكتوبر 1988 بداية جديدة لإدخال إصلاحات سياسية كانت نتيجتها فتح المجال أمام الحزبية التعدّدية

و حرية الصّحافة ، و المصادقة على دستور 23 فبراير 1989 ، و إلغاء محكمة أمن الدولة بتاريخ الفاتح من مارس سنة 1989 ؛ ممّا فتح الباب على مصراعيه لحمّى المعارضة التي طالت المساجدو خطباءها الذين وجدوا حرية في الكلام لم يحدث أن وجدوا مثلها من قبل ، و التحامل غير المسبوق لبعضهم على أجهزة الدولة ورموزها ؛ وبعد تأسيس الأحزاب " الإسلامية " زادت نبرة هذا الخطاب حدّة و جرأة ، ولعلّها ردّة الفعل الطبيعية على خطاب السلطة العنيف(بنبرته الأحادية و الإقصائية) منذ الاستقلال .

و الملاحظ في هذه الفترة هو فقدان الخطاب الإسلامي لخاصّيته المعروفة " الوحدوية " ، فبدلا من جمع النّاس على كلمة الحقّ و التقوى ، و رصّ الصفوف و توحيدها ، أصبح التفرّق و التشرذم السمة الغالبة ؛ فهناك تيار الجزأرة و الإخوان و السلفية ، و ما إلى ذلك من التسميات و المسمّيات التي لم يكن لها وجود من قبل ، وأصبح

لكـــلّ تيـــار مساجده و خطباؤه ، بل و مرتادوه أيضا ؛ إلاّ أنّنا يمكن أن نميّز بين ثلاثة مناهج خطابيـــة في إطـــار هـــذا الخطـــاب (غـــير الـــرسمي) في أبعـــاده و منطـــلقاته و هـــي : المنهج الثوري ، المنهج السياسي ، و المنهج التربوي ؛ و يعدّ هذا الأخير أقلّها تواجدا في الســـاحة آنذاك بفعل التأثّر الواضح بالخطب السياسية لقادة الأحزاب الإسلامية الذين كانوا يســـتعملون بعـــض المساجد كمنابر لأحزابهم ، و قد وصل الأمر ببعض رؤساء البلديات إلى إلقـــاء الخطب السياسية في المساجد التي تتبع بلدياتهم متخطّين بذلك وظائف غيرهم ، سواء كان ذلك برضا أولئك أو بعدمه . (17)

و بعد أحداث 1991 ، و إلغاء انتخابات 1992 ، انتقل العنف من الشارع إلى خنادق الجماعات المسلّحة ، و من مساحات المساجد إلى أعالي الجبال المحيطة بالمدن الكبرى و بالعاصمة خاصّة ويوظّف هذا الظّرف السياسي من طرف بعض خطباء السوء للدعوة إلى التكفير و الخروج على الحكّام و العصيان المدني ، ومواجهة عنف السلطة المتمثّل في وقف المسار الانتخابي بعنف أكبر منه ؛ و في مواجهة " لجنة إنقاذ الجزائر " و " المجلس الأعلى للدولة " ، ظهر ما يسمّى بالجماعات المسلّحة التي سرعان ما خرجت عن سيطرة و تحكّم القادة السياسيين من الإسلاميين ، في الوقت الذي دخلت فيه البلاد دوّامة أزمة دستورية خانقة عقب استقالة الرئيس و حلّ البرلمان . و تميّزت هذه المرحلة بخطاب رسمي غير واعي ضاعف من أعداد الناقمين على النظام و الرافضين لتوجّهاته ، نتيجة النبرة الإقصائية التنفيرية التي كانت تطبع الخطب الرسمية ، والتي كانت في مجملها تزيد في حالة اليأس ، و تهيّج مشاعر العداء تجاه أجهزة الدولة و هياكلها ؛ و بالمقابل عمّ الخطاب غير الرسمي بعض التجمّعات السكانية ذات القواعد الحزبية المحسوبة على التيار الإسلامي ، فكان يعمل على استنفار الناس للعصيان المدني و حمل السلاح لاستعادة " الحقّ المسلوب " ، متجاهلا عن قصد ، أو بغير قصد مبادئ الأخوّة الإسلامية ، و حرمة دماء المسلمين و أعراضهم ، و راكبا موجة من الجهل بالقواعد الشرعية ، و فقه الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، ومتجاهلا وجوب طاعة أولياء الأمور ، و منهج سدّ الذرائع ، وخطورة تغيير المنكر بمنكر أكبر منه ، حتّى

أصبح التكفير موضة هذا الخطاب الشاذّ ، و غير الواعي ، بل و غير الشرعي الذي ميّزه العنفو الغلوّ ، و بضاعة العلم المزجاة، فصار خطاب فتنة بجميع المقاييس . (18)

و يواصل الخطاب الإسلامي تكيّفه مع الأحداث في الجزائر ، وبعد انقضاء عقد من الزمن عاشت فيه جزائر الاستقلال أحلك أيّامها ، توصّلت السلطة الجزائرية إلى صيغة مصالحة انتهت بحقن دماء المواطنين ، و هي المرحلة التي لعب فيها الخطاب الديني دورا مميّزا بتبنّيه منهجا معقلنا و رشيدا ، وتغليبه منطق الحكمة و الموعظة الحسنة ، و استعانته ببعض أهل العلم المرموقين من داخل و خارج الوطن و إلغاء مظاهر الإقصاء التي ميّزته من قبل ؛ و لقد ساعد وصول بعض الأكاديميين إلى هرم المسؤولية بوزارة الشؤون الدينية ، على اتباع منهج دعوي سليم من وجهة النظر الشرعية ، فأصبح هذا الخطاب أوسع إقناعا ، و أكثر إجماعا ، ممّا جفّف بعض منابع العنف و التعصّب ، و خفّف من وطأة الصّراع على المستويين الفكري و الاجتماعي على الأقلّ في التجمّعات السكّانية الأكثر اكتظاظا . (1) و إذ نقول هذا الكلام ، فإنّنا لا ننفي وجود أخطاء ما زالت تسجّل في هذا الخطاب الذي ما يزال محتاجا إلى الكثير من المراجعة و التنقيح و التجديد ؛ و الاستجابة لمتطلّبات المرحلة الراهنة ، وتحدّيات المستقبل القادمة .

كانت هذه بعض ملامح الخطاب الإسلامي الجزائري ، و هو يمرّ بتطوّرات تاريخية ومرحلية جعلته يتغيّر باستمرار ، فيتّبع الأحداث و الوقائع تارة ، و يبقى على هامشها تارة أخرى ؛ و يلتزم المقاييس الأدبيّة ، المنهجية ، و العلمية في بعض محطّاته ، و يحيد عنها في محطّات أخرى .

هوامش :

(1) رابح بونار ، المغرب العربي تاريخه و ثقافته ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1981 ، الطبعة الأولى ، ص 22

(2) عمار هلال ، أبحاث و دراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1995 ، ص ص (14 – 16

(3) محمد الطيب العلوي ، مظاهر المقاومة الجزائرية ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد الجزائر 1994 ، ص ص (73 –168)

(4) مجاهد مسعود ، تاريخ الجزائر ، الجزء الأوّل ، الجزائر الطبعة الأولى (دون تاريخ) ص ص (111 –155)

(5) عبد القادر جغلول ، مقدّمات في تاريخ المغرب العربي القديم و الوسيط ، ترجمة فضيلة الحليم ، دار الحداثة للطباعة و النّشر و التوزيع ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية 1988 ، ص 6

(6) عباس الجراري ، الأدب المغربي من خلال ظواهره و قضاياه ، الجزء الأوّل ، مكتبة المعارف ،الطبعة الثانية ، 1979 ص ص (42 – 45)

(7) محفوظ قدّاش ، الجزائر في العصور القديمة ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1993 ، ص ص (7-40)

(8) رابح سنايسي ، الفكر الديني المعاصر في الجزائر ــ أصوله و اتجاهاته ــ ، أطروحة دكتوراه دولة ،قسم اللغة العربية و آدابها ، جامعة تلمسان (2000-2001)، ص 13

9) محمد زروال ، الحياة الروحية في الثورة الجزائرية ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر 1994 ، ص ص (45 - 109)

(10) رجل أوربا المريض : تسمية كانت تطلق على الدولة العثمانية في آخر أيّامها قبل سقوطها عام 1924 على يد مصطفى كمال آتاتورك ، أنظر الموقع www.baladynet.net في مقال لعلي عبد العال بعنوان : " السلطان عبد الحميد المفترى عليه و قوى الشرّ التي تآزرت ضدّه " .

(11) صالح عبّاد ، المعمّرون و السياسة الفرنسية في الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر1984 ، ص ص (70 – 111)

(12) صالح فركوس ، نحو تأصيل إسلامي لتاريخ الجزائر ، دار الكوثر للنّشر ، الجزائر ، الطبعة الأولى 1991 ، ص 89

(13)Charles Robert AGERON , Politiques de France , Paris 1972 , P 101 Coloniales , Presses Universitaires

(14) أحميدة عياشي ، الإسلاميون الجزائريون بين السّلطة والرّصاص ، دار الحكمة الجزائر 1992 ، الطبعة الأولى ، ص 142

(15) محمد جبريل ، تطوّر الخطاب الديني مرتبط بتطوّر الأحداث ، أنظر إصدارات إيهاب سلطان القاهرة على الموقع : www.arabiat.com

(16) أبو جرّة سلطاني ، جذور الصّراع في الجزائر ، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، الطبعة الأولى ، الجزائر 1995 ، ص 232

(17) عجّال سلاّمي ، آثار ظاهرة العنف في المجتمع الجزائري ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأنثروبولوجيا من قسم الثقافة الشعبية بجامعة تلمسان 2000-2001 ، ص ص (58 - 59)

(18) أحميدة عيّاشي ، مرجع سابق ، ص ص (305 - 323)

(19) عبد المالك رّمضاني ، مدارك النظر في السياسة بين التطبيقات الشرعية و الانفعالات الحماسية ، مكتبة الفرقان ، عجمان ، الإمارات العربية المتحدة ، الطبعة الرابعة 2001 ، ص ص (125 – 127)